المهمة المزدوجة لأوائل النقاد

بقى نوع آخر من النصوص التى تشير إلى رفض أشعار المحدثين فى مجال معين هو مجال الاستشهاد اللغوى والنحوى ، يمثلها ما رواه الأصمعى من عدم احتجاج أبى عمرو بأشعار الإسلاميين ، كما تمثلها صفة «خاتم الشعراء» التى كانت تتردد على ألسنة اللغويين والنحاة مشيرة إلى توقف الاحتجاج فى هذا الميدان عند أجيال معينة . ومع وضوح القصد تماماً فى مثل هذه العبارات فإن الدارسين المحدثين قد خلطوا بين استبعاد الشعر فى الميدان المشار إليه وبين رفضه لاعتبارات فنية ، وفسروا ما تحمله هذه النصوص على أنه من قبيل التعصب .

وإنما أوقعهم فى هذا الخطأ عدم تبينهم للمهمة المزدوجة التى كان على أوائل النقاد الاضطلاع بها من ناحية ، وعدم تبين مقتضيات ما عرف بحركة التنقية اللغوية من ناحية أخرى . ذلك أن النقاد الذين اضطلعوا بمهمة تقويم الشعر وتوجيهه فى تلك الفترة كانوا يقومون بمهمة ذات وجهين ، لقد كان على أولئك العلماء — مثل أبى عمرو وخلف وأبى عبيدة والأصمعى — القيام بدور النقاد فى الوقت الذى يباشرون فيه مهام حركة التنقية اللغوية ، والتى كانت تنظر إلى نماذجها نظرة تختلف

عن نظرة الناقد العادى المتكفل بمهمة التحليل والتقويم أو الحكم . . . إلخ مراعياً كل عناصر العمل الفنى وحاملاً عيوبه على محاسنه بحيث يصدر عليه حكماً كلياً يمثل حصيلة جمع المحاسن إلى العيوب .

وكان عليهم – حين يتصدون للعمل اللغوى أن يرفضوا كل ما لا يصلح للاحتجاج فى هذا المجال ، وكان كثير مما يرفضونه ينتمى إلى العصور المتأخرة ، وذلك بحكم انعدام شرط النقاء اللغوى فى شعر المتأخرين ، وهذه هى حقيقة ما يبدو فى عبارات بعض أولئك العلماء من تنويه بالشعر القديم دون الحديث ، كالتصريح أحياناً بأن الأول أساس الاحتجاج ، فلم يكن وراء تلك العبارات والتصريحات سوى مبدأ واحد هو أن الشعر القديم يمثل المادة الصالحة للاحتجاج اللغوى والنحوى ، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك وجه لتفضيل شعر على شعر إلاّ على أساس الجودة ، بصرف النظر عن مقاييسها- التى لم يكن من بينها قدم الشعر .

وقد عرفنا أنهم نصوا من بين من لا يحتج بلغتهم على خمسة شعراء بالذات ، ثلاثة من الجاهليين واثنين من الإسلاميين ؛ ونقصد عدى ابن زيد وأبى دؤاد الإيادى وأمية بن أبى الصلت والطِّرِمَّاح والكُمَيْت .

غير أن أولئك الشعراء كانوا محلا للتقدير من جانب علماء الشعر حين يتجاوز الحديث أمور اللغة والنحو .

فابن سلام يقول عن عدى : (وله أربع قصائد عرر روائع

مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن) ويحكى عن يونس قوله – وقد تمثل بيته :

أَيُّها الشَّامِتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْـ ... ـرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الـمَـوْفُورُ

فقال يونس : (لو تمنيت أن أقول شعرًا ما تمنيت إلا هذه أو مثل هذه) .

ويورد ابن قتيبة فى حديثه عن عدى ما وصفه به ابن سلام من أن له أربع قصائد غرراً ، ثم أورد منها جميعاً فى كتابه واستجاد له قوله :

قَدْ يُدْرِكُ المُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ ... وَالْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جهْدَ الحَرِيصْ

وهو البيت الذى ذكر المبرد أن القَطَامى أخذ منه قوله :

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّى بَعضَ حَاجَتِهِ ... وقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

كما يستجيد ابن قتيبة له قولاً فى وصف السقاة ، ويسجل له السبق فى شعر قاله لأخيه يحذره من دخول أرض النعمان .

وفى «حلية المحاضرة» يورد الحاتمى أمثلة لأحسن ما قيل فى رد الشامتين ، ويذكر منها بيت عدى بن زيد : (أيها الشامت . . . «البيت السابق») ويسجل أنه صاحب واحد من الأمثال الشاردة فى طلب التوفيق من الله ، وكذلك فى الوعظ بالأيام ، وفى الحض على المجازاة عن الخير والشر كل بمثله ، ويستشهد المبرد – كما فى الحلية – ببيت عدى :

قد يدرك المبطئ من حظه ... والخير قد يسبق جهد الحريص

للأبيات المشتملة على مثلين ، ويورد الحاتمى قول عدى :

لَوْ بِغَيْرِ المَاءِ حَلْقِى شَرِقٌ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْماءِ اعْتِصَارِى

على أنه من أحسن ما قيل فى مجىء الإساءة من قِبَلِ من لا تُتَوَقَّعُ إساءته . . . أما الأصمعى فكان يقول : إنه ما رأى كلاماً أشبه بالسنة من قول عدى بن زيد :

عَنِ الْمَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَإِنَّ القَرِين بالمُقَارَنِ مُقْتَدِ

أما عن **أَبِى دُؤَاد** فإن ابن قتيبة يورد قول الحطيئة ، الذى استشهد به القاضى الجرجانى ، من أن أشعر الناس هو أبو دُؤَاد فى قوله : (لا أَعُدُّ الإقْتَار عُدْماً . . إلخ) ويقول ابن قتيبة : وهذه القصيدة أجود شعره ، ويختار بعضها ويورده ، كما يسجل له السبق إلى قول له فى حماية الجار والمحافظة على عهده ، أخذه منه الحُطَيْئَة . وأهم من هذا يورد قولَ الأصمعى فيه : إنه أحد نُعَّاتِ الخيل المجيدين ، وهم ثلاثة : أبو دُؤَاد . . . وطُفَيْل والنَّابغة الجَعْدى ، كما يسجل له الحاتمى فى حلية المحاضرة السبقَ إلى معنى فى وصف الفرس أخذه منه زهير ، وفى (المُوَشَّح) خبر له دلالته ، ويذهب إلى أن خلفاً الأحمر كان ينحل شعره أبا دؤاد الإيادى ، وأن فى أيدى أهل الكوفة أربعين قصيدة باسم أبى دؤاد صنعها خلف الأحمر ، والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو : هل كان خلف ينحل شعره شاعراً لا قيمة له ، أعنى شاعراً لم يكن هناك طلب على شعره ، ولا أحد يرغب فى سماعه ؟ لا شك أن المنزلة الشعرية

لأبي دؤاد هي التي جعلت رجلاً مثل خلف يختار هذا الشاعر بالذات يسند إليه قصائده المنحولة .

وأما عن **أمية بن أبي الصلت** ، ففي الأغاني خبر عن عمر بن شبة (قال أبو عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ، ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت) وفي خبر آخر عن يحيى بن محمد (قال الكميت : أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال) ويصنف الأصمعي شعر أمية ضمن أشعار من ذهبوا في اتجاه واحد ، فيرى أن عامة شعر أمية في ذكر الآخرة كما أن عامة شعر عنترة ذهبت في الحرب ، وعامة شعر عمر بن أبي ربيعة ذهبت في ذكر الشباب ، وفي الأغاني أيضاً أن سفيان بن عُيَيْنَة استشهد بشعر أمية في معنى أن ثناء المادح على الممدوح كاف في تذكيره بحاجته ، وذلك في أثناء شرح مضمون دعاء للرسول ، وكيف أن صيغة الدعاء جاءت في صورة الذكر .

ولقد ترجم ابن قتيبة – في الشعر والشعراء – **للكميت بن زيد** ، وتحدث عن شعره وكثرة سَرَقِهِ ، ولكنه ذكر بعض المختار من شعره ، فأورد له قطعة من قصيدة بائية في النبي ، وبيتاً في هشام بن عبد الملك وقطعة أخرى من جيد شعره ، ويصفه صاحب الأغاني بأنه (شاعر مقدم عالم بلغات العرب خبير بأيامها) ، وفي الأغاني أيضاً خبر عن مناظرة بين الكميت وحماد الرواية وأن الكميت غلبه في العلم بالشعر واللغة والغريب

والرواية . وعرض الكميت شعراً له على الفرزدق ، يستشيره فى إظهاره إن كان جيداً أو ستره إن كان رديئاً ، فأمره الفرزدق – بعد أن سمع الشعر – بإظهار شعره قائلاً (أنت أشعر من مضى وأشعر من بقى) ويذكر حماد مصدر علم الكميت وأنه كانت له جدتان أدركتا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس فى الجاهلية ، فإذا شك فى شعر أو خبر عرضه عليهما فتُخْبِرَانِهِ عنه ، فمن هناك كان علمه .

وأما عن **الطرماح** بن حكيم فإنهم يحكون أن الأصمعى كان يستجيد قوله فى وصف الظليم :

مُجْتَابُ شَمْلَة بُرْجُد لسَرَاتِه قَدْرًا وأسلم ما سِواهُ البُرْجُدُ

وفى (حلية المحاضرة) نجد هذا البيت ضمن عدد من التشبيهات العقم – وهى التى لم يُسبق أصحابها إليها ولم يلحقهم فيها أحد لحوقاً محسناً – وهى التشبيهات التى اختارها أبو عمرو وخلف ويونس ، ضمن عدد من تشبيهات الشعراء منهم عنترة وعدى بن الرقاع والراعى والنابغة وذو الرمة وغيرهم . كذلك يذكر ابن قتيبة تفضيل الأصمعى لبيته فى وصف الثور ، وإلى نفس الشىء ذهب الحاتمى فى «حلية المحاضرة» حيث يذكر تفضيل الأصمعى لبيت الكميت :

يبدُو وتُضْمِرُهُ البلادُ كَأَنَّهُ سيفٌ علىَ شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

على قول النابغة :

من وَحْشِ وجْرَة موشِيٍّ أكارعُهُ طَاوِى المَصِيرِ كسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ

فقال الأصمعى : إن الطرماح (أحق بهذا المعنى منه لأنه أخذه وجوده وزاد عليه ، وإن كان النابغة افترعه) .

وفى هذه الأخبار – على قلتها – كفاية ، فكثير منها صادر عن الأصمعى ، ويعترف فيها بالشاعرية والتفوق للشعراء الذين رفض الاحتجاج بشعرهم .